مغامرات العقل وتحرر الإنسان
إضاءات على جوانب من فكر إبراهيم البليهي

ألقيت الورقة في حفل تكريم المفكر الأستاذ إبراهيم البليهي بالقطيف بتاريخ ٣ جمادى الآخرة ١٤٤١هـ الموافق ٢٨ يناير ٢٠٢٠م

د. توفيق آل سيف
مفكر وباحث وسياسي ومؤلف مهتم بقضايا التنمية السياسية

الأستاذ إبراهيم البليهي واحد من المفكرين النوادر في المملكة العربية السعودية. إني أشبّه دوره التنويري بأدوار مفكرين كبار، مثل جون لوك وجان جاك روسو، الذين لم يكتشفوا كنجوم في عالم الفكر، إلا بعد وقت طويل من طرحهم الأولي لأفكارهم. هؤلاء الأفذاذ حصلوا على التقدير الذي يستحقونه بعد زمن طويل من رحيلهم. أما إنكار الناس لقيمة أفكارهم يوم طرحوها، فسببه أن الناس يكرهون من يحدثهم عن أخطائهم. وسيغضبون عليه أكثر لو أخبرهم أن آباءهم كانوا خاطئين أيضًا، وسيمقتونه أشد المقت، لو قال لهم، دون أن يرف له جفن، بأنهم ـ فوق كل إرثهم البائس وأخطائهم الحاضرة ـ عاجزون عن إصلاح انفسهم وحياتهم. هذا ما فعله البليهي على وجه التحديد.

ولكي يزيد الطين بلة، فإنه لم يقل ذلك في كتاب علمي لا يقرأه إلا قلة من ذوي الاختصاص. بل قاله في كل مكان استطاع الوصول إليه، من الصحيفة اليومية، إلى محاضرة في منتدى مفتوح، إلى حديث على التلفزيون. بعض الناس رأوا أنه كان على البليهي أن يحافظ على خطاب أقل خشونة مما اعتاد، كي يتجنب عداوة التيارات القوية في المجتمع. لكن الواضح أنه لم يعبأ بمثل

هـذا الـكلام. آخـرون حاولـوا اقناعـه بـأن يتحـدث في قضايـا أخـرى، غـير رؤيتـه الرئيسـية التـي تسـببت في الصـدام بينـه وبـين اولئـك النافذيـن، لكنـه أيضًـا لا يـرى قضيـة تسـتحق العنـاء سـوى النظريـة التـي يدعـو إليهـا ويعمـل عـلى بنـاء إطارهـا النظـري، أي مـا يسـميه «علـم الجهـل».

اختـار البليهـي أن يذهـب مبـاشرة إلى مـا يعتقـد أنه جوهر المشـكل الاجتماعـي، كي يعرضـه عاريًـا أمـام النـاس، دون قلـق مـن ردود الفعل، التـي كانـت ـ كما هـو متوقـع ـ قاسـية جـدًّا ومؤلمة.

الإرث العليل

يعتقـد البليهـي أن جوهـر المشـكل الـذي يواجـه العـرب، هـو أن أذهاننـا وهويتنـا تشـكّلت تحـت تأثـير تـراث ثقـافي عتيـق ومنفصـل عـن زمنـه. لقـد ورثنـا هـذا الـتراث مـن آبائنا، وبـات من ثـم أرضيـة نبني عليهـا رؤيتنـا لأنفسـنا وعالمنـا، ونعيـد إنتاجهـا كإرث جديـد ننقلـه إلى أبنائنـا. هـذا الثقـافي متخـم بالأسـاطير التـي أبطلهـا العلـم الحديـث. هيمنـة المـوروث الثقـافي ليـس حالـة خاصـة بالعـرب، فهـو يـرى أن «النـاس مـن كل الانسـاق الثقافيـة المتضـادة، يلتقـون في العقلانيـة العمليـة والتنظيميـة والفنيـة والماديـة، وفي كل مـا هـو مشـترك بـين كل البـشر، لكنهـم يفترقـون افتراقًـا حـادًّا في الانسـاق الثقافيـة المتوارثـة»[1].

تبـدو عنـاصر الثقافـة العامـة جذابـة في عيـون أصحابهـا، لأنهـا تنسـجم مـع مـا يعرفـون مـن قيـم وأعـراف. لكنهـا مـع ذلـك ليسـت شـيئًا ينبغـي الحفـاظ عليـه. لقـد أبدعهـا أسـلافنا كاسـتجابة لظـروف خاصـة بهـم، في أزمـان متفاوتـة. ثـم، وبسـبب ظـروف التخلـف والجمـود، ومـا يفـرزه مـن ميـل نفـسي شـديد لتقديـس الأسـلاف،

(١) إبراهيـم البليهـي: الإنسـان كائـن تلقـائي، دار الروافـد الثقافيـة بـيروت ـ ابـن النديـم للنـشر بـيروت ٢٠٢٠، ص ٣٨٨.

جرى تجريد تلك الأعراف والتقاليد من إطارها التاريخي الخاص، فباتت مطلقة، ثم تحولت إلى نوع من المسلّمات المقدّسة أو شبه المقدّسة، التي لا يجادلها أحد، أو التي - على أقل التقادير - تثير الفزع، حين يعترض عليها بعض الناس.

بكلمة واحدة، هذه الأعراف المقدّسة أوهام متراكمة، وضعناها في مرتبة المعرفة حينًا، وفي مرتبة القيمة حينًا آخر، فتحولت نتيجة لذلك إلى جهل مقدس، أو حجاب على العقل، يريك العالم على نحو غير ما هو عليه في الواقع. ومن هنا، يرى البليهي، أن المجتمع العربي غير قادر على التحرر من جهله، وغير راغب في التحرر أيضًا، لأنه لا يرى في هذا الركام الثقافي سوى صورته وصور أسلافه، على النحو الذي يحبه ويرتاح إليه.

معظم الذين قرأوا البليهي أو استمعوا إليه سيشعرون بصدمة، خفيفة بالنسبة للبعض، وقاسية للبعض الآخر، لأنه ببساطة لم يؤجل صراعاته مع أحد كما لم يجامل أحدًا. ولذا فإن أيًّا من التيارات التي تصارعت في المجتمع السعودي لا ترى فيه حليفًا أو سندًا، كما أنه لا يستطيع الاتكال على أي منها أو التعويل على دعمه، في مواجهة موجات الكراهية والتحريض السلبي التي توجهت إليه في معظم الأوقات.

ليس سهلًا أن يكون الإنسان ناقدًا للجميع، لأنه ليس سهلًا أن يكون خصمًا للجميع. وفي مجتمع تقليدي كمجتمعنا، فإن أي ناقد سيصنف عدوًا، ولن يقرّ له أحد بالحق في أن يتبنى فكرته الخاصة أو قناعاته المختلفة. والحق أن البليهي اختار أصعب طريق ممكن للتعبير عن قناعاته. فقد اصطدم مبكرًا بالتيار الديني التقليدي وذراعه المنظم، وهذا الأخير فريق احترف خوض المعارك وتشويه المعارضين وعزلهم اجتماعيًا وتخريب مبادراتهم.

جوهر الرؤية التي يدعو اليها البليهي، هو السبب في اصطدامه

بالتيار الديني التقليدي. هذا تيار يقدس الموروث، ينظر إلى التاريخ كمرجع للأفكار والآراء والمعايير، ويعلن صراحة أنه يسعى لقولبة الجيل الجديد وبرمجته وفق ما يراه صالحًا للدين والدنيا.

برمجة الأذهان وادلجة الجيل هي محور جدالات البليهي، وهي ـ عنده ـ سبب العجز المشهود عن التحرر من الجهل المقدس والأوهام الموروثة. وهي بالتالي سبب التخلف الاجتماعي الذي يركد فيه العرب والمسلمون عمومًا.

يسعى البليهي لتأسيس نظرية جديدة يطلق عليها اسم «علم الجهل». وهو يبني هذه الرؤية على أرضية علمية، سوسيولوجية وابستمولوجية، معروفة ومقولاتها رائجة بين دارسي الاجتماعيات والثقافة. ولهذا أيضًا فهي تتعرض للنقد الذي يتوجه لتلك المقولات، فضلاً عن النقد الخاص بالعلاقة بينها وبين المستخلصات النهائية.

علم الجهل

تأسيس «علم الجهل» هو المهمة التي يقول البليهي أنه نذر لها حياته. والحقيقة أنه من السهولة بمكان أن تلاحظ أن كل أحاديثه وكتاباته خلال الثلاثين عامًا المنصرمة، دارت بشكل رئيسي حول هذا الموضوع. دعنا مثلاً نستعرض المبرر الذي ساقه إلى هذا المسار، منذ وقت مبكر نسبيًا. في ١٩٩٣ كتب البليهي:

> كلما استمعت إلى طوفان الأحكام التي يصدرها الناس على كافة القضايا وعلى مختلف الأفكار والاشخاص والمواقف والأشياء بشكل جزافي وجائر وخال من الاحساس بمسؤولية الكلمة (....) وكلما اصغيت إلى جدال بين مختلفين، احسست بالحاجة القصوى إلى تاسيس علم الجهل، ليرافق حياة الناشئين منذ البدايات الأولى لطلب العلم، وليصطحبوه

في كل حياتهم، حتى يدركوا ضآلة ما يعرفون، قياسًا بما لا يعرفون (...)

إن علم الجهل هو المدخل الحقيقي للعلم. لأن الناس لا يفطنون أن الجهل في الفرد هو الأصل، أما العلم فهو شيء طاريء وضئيل وهش. ومع ذلك لا بُدّ من المجاهدة الدائمة لاكتسابه. فالجهل بلا حدود أما العلم فهو تقميش محدود[1].

المشكلة الجوهرية التي يواجهها الناس في الحياة اليومية، حسب تقدير الأستاذ البليهي، هي التعالم الناتج عن الجهل المركب، أي جهل الإنسان بكونه جاهلًا «إن جهل الجهل هو أصعب عوائق المعرفة. فالذي يجهل جهله لا يحاول أن يتعلم. والذي تغيب عن ذهنه احتمالات الخطأ، لا يكون حذرًا في إصدار الأحكام»[2].

وهي مشكلة جوهرية لأنها تشكل ما يمكن وصفه بسلوك عام عند البشر. معظم الناس يجهلون نقاط جهلهم، وهي ـ بطبيعة الحال ـ أكثر بكثير من نقاط علمهم. أما السبب الذي يرجع إليه البليهي هذه السمة فهي طبيعة البشر في الثقة المطلقة بما استقر في أذهانهم من تصورات أو مواقف تجاه البشر والأشياء[3].

انطلاقًا من هذه النقطة يذهب البليهي بعيدًا، وأظنه يتجاوز ما هو ممكن بحسب الطاقة البشرية وطبائع الحياة، فينتقد ما يمكن وصفه بجهل المفكرين «حتى حين يكون الفرد على جانب كبير من التفتح وسعة الاطلاع وعمق المعرفة، فإن النقص البشري يبقى ملازمًا له، لأن معارفه محكومة باهتماماته وهو في الغالب لا

(١) إبراهيم البليهي: بنية التخلف، كتاب الرياض، مؤسسة اليمامة الصحفية (الرياض ١٩٩٥) ص ١٥٤

(٢) البليهي: بنية التخلف ١٥٦.

(٣) البليهي : بنية التخلف ١٥٦.

يـرى إلا مـا تجسّـده هـذه الاهتمامـات»[1] .

اعتقـد أن اشـارة البليهـي هـذه غـير مناسـبة للموضـوع، لأنهـا تخرج النقـاش مـن الحـدود العلميـة الطبيعيـة (النقـاش ضمـن مـا هـو ممكـن عـادة وفـق الطاقـة البشريـة) إلى تقديـرات مبنيـة عـلى معايـير مثاليـة متجـاوزة، ولا يمكـن التحقـق مـن إمكانيتهـا أو صدقيتهـا. في الحقيقـة فـإن مـا لا يسـتطيعه الإنسـان لا يعتـبر جهـلاً بالمعنـى الذي يعمـل عليـه الدارسـون، بـل هـو أقـرب إلى المعنـى الميتافيزيقـي للغيـب، والجهـل بـه أمـر طبيعـي، بـل لا يمكـن القـول بغيـره.

لكـن للانصـاف، سـوف أضـع تبريـرًا لهـذا الموقـف، خلاصتـه أن البليهـي ربمـا أراد مـن اطـلاق هـذه الدعـوة المثـيرة، الإشـارة إلى حقيقـة نعرفهـا وهـي أن غالبيـة أهـل العلـم، في ظـرف محـدد، منسـجمون مـع التيـار السـائد، ممتنعـون عـن نقـده، لأكـثر مـن سـبب، معـرفي أو نفـسي. فالغـرض مـن إشـارة البليهـي إذن التشـنيع عـلى أهـل الفكـر المعرضـين عـن دورهـم الرئيـس، أي نقـد السـائد.

القابليات الفارغة

يعتقـد البليهـي أن الجهـل هـو الأصـل. ويعـبر عـن هـذا المعنـى بمقولـة القابليـات الفارغـة. خلاصـة هـذه المقولـة أن الإنسـان يولـد بذهـن فـارغ، وأن المحيـط الاجتماعـي يقولـب عقلـه ويحـدد توجهاتـه. لهـذا فـإن الإنسـان يتحـول ـ دون أن يشـعر في الغالـب ـ إلى نسـخة عن المثـال الـذي يريـده المجتمـع[2]. وهـو يؤكـد مـرة بعـد مـرة عـلى تأثـير البيئـة الاجتماعيـة في تشـكيل الإنسـان، ثقافتـه ولغتـه وتوجهاتـه العامـة ورؤيتـه للعـالم، ويـضرب مثـلاً بالإنسـان الذئـب: لـو أن إنسـانًا تـربى بـين الذئـاب، لأصبـح مثلهـم يعـوي مثلهـم ويتحـرك مثلهـم ويـأكل مثـل مـا يأكلـون.

(١) البليهي : بنية التخلف ١٥٦.

(٢) إبراهيم البليهي: الإنسان كائن تلقائي ٣١

هـذه الفكـرة مثبتـة علميًـا، وهـي الـرأي الراجـح عنـد الغالبيـة العظمـى مـن علـماء الاجتـماع المعاصريـن. لكـن البليهـي يفـترق عـن هـذا الاتجـاه حـين يتشـكك ـ بقـوة ـ في قـدرة الأفـراد عـلى اكتشـاف حقيقـة الوضـع الـذي يعيشـونه ثـم التحـرر مـن أسر البيئـة.

وللتوضيـح أودّ البـدء بالإشـارة إلى أن تعبـير «قابليـات فارغـة» ينطـوي عـلى غمـوض في دلالتـه. القابليـة ليسـت وعـاء كي تكـون مليئـة أو فارغـة، بـل هـي حالـة ديناميكيـة، توجـد في الإنسـان عنـد ولادتـه، ثـم تتطـور أو تتراجـع بتأثـير التفاعـل بـين الإنسـان ومحيطـه. دعنـي أميّـز هنـا بـين ثلاثـة أشـياء، كي نسـتوضح الـذي نتحـدث عنـه:

١. العقل والغرائز
٢. القابليات الفطرية natural endowments
٣. القدرات/الامكانات capacities/capabilities

العقـل والغرائـز: نعـرف جميعًـا أن الإنسـان يولـد مجهـزًا بالعقـل والغرائـز، وهـذا مـما لا خـلاف فيـه. العقـل عـلى وجـه الدقـة، هـو أداة فحـص وتصنيـف وخـزن وإعـادة إنتـاج المعرفـة وتطويـر المعرفـة. إن عقـل الطفـل الرضيـع قـادر عـلى فـرز مـا يعتـبر تهديـدًا لحياتـه ومـا لا يعتـبر. مقاومـة الفنـاء هـي أقـوى الغرائـز عنـد كافـة الأحيـاء. لكنهـا عنـد الإنسـان تتحـول إلى أداة دفـاع عـن الـذات متطـورة وديناميكيـة، يعـاد إنتاجهـا بشـكل فـوري بحسـب الظـروف المحيطـة. هـذا التطـور هـو عمـل العقـل. لكـن الغريـزة الأخـرى، أي غريـزة التملـك والتكاثـر في المـال والعلـم والقـوة والمكانـة، هـي الشـاهد الاعظـم عـلى عمـل العقـل. ونسـتطيع تلمـس آثارهـا عنـد الأطفـال منـذ بواكـير أيامهـم. **إن الغرائـز ليسـت سـوى ذلـك الجـزء مـن العقـل، الـذي تمـت برمجتـه في الإنسـان وهـو لا زال في رحـم أمـه، مـن قبـل الخالـق سـبحانه وتعـالى.** المجموعـة المتشـكلة مـن العقـل وأدواتـه الماديـة (الحـواس الخمـس) والإدراكيـة (الغرائـز) هـي وسـيط التواصـل بـين المخلـوق

الذي هبط للتو على سطح الأرض وبين العالم الذي يستضيفه.

اما **القابليات الفطرية**، فهي إما بيولوجية أو ذهنية/روحية. الأولى مثل الصحة وسلامة البدن، وبعضها إرث من الأبوين وبعضها الآخر نتاج لتأثير البيئة. أما **القابليات غير البيولوجية، مثل الأخلاقيات والسلوكيات والذكاء، فلا أحد يقول بأنها فطرية، بمعنى أنها ضمن تكوين الإنسان لحظة ولادته.**

لا بأس بالاشارة هنا إلى وجود تيار صغير بين علماء الأحياء والاجتماعيين، يطلق عليه وصف الداروينية الجديدة، يرى أن بعض الصفات غير البدنية تنتقل من خلال الجينات، مثل الذكاء والقدرة على تحدي عوامل الفناء. واحتمل أن عالم الأحياء الأمريكي ادوارد ويلسون هو أبرز القائلين بهذا الرأي في العصر الحاضر. وقد عرضها بالتفصيل في كتابه «البيولوجيا الاجتماعية: التوليفة الجديدة»[1]. لكن هذه الرؤية ليست مقبولة عند السواد الأعظم من علماء الأحياء، فضلاً عن الاجتماعيين. كما أن الأستاذ البليهي رفضها أيضًا في أكثر من حديث، من بينها محاضرته في الكويت في ١٠ يناير ٢٠١٢.[2]

أما **القدرات/الإمكانات**، فلم أسمع أحدًا من اهل العلم يقول أنها وراثية أو فطرية. الاجماع قائم على أنها نتاج للتفاعل بين الفرد ومحيطه، مؤثرًا أو متأثرًا.

زبدة القول أن فكرة «القابليات الفارغة» ليست واضحة، وإذا صح تفصيلنا لها على أحد المعاني الثلاثة، فلن تكون متينة بما يكفي لدعم نظرية الأستاذ البليهي. لكننا سنأخذ منها الجزء

(١) Edward O. Wilson, Sociobiology: The New Synthesis, Harvard University Press (Massachusetts 1975)

(٢) انظر تقريرا عن المحاضرة: إبراهيم البليهي: مازلنا نتوارث ثقافة التخلف منذ مئات السنين، الجريدة 12-01-2012 https://www.aljarida.com/articles/1462004599528097600/
يوتيوب: https://www.youtube.com/watch?v=3WP87bvIOXo

الذي يركّز على دور البنية الاجتماعية في صياغة الهوية والذهنية.

ماذا يعني أن تكون المشكلة في البنية

البنية الاجتماعية ليست قطعة حجر، فهي كائن حي متفاعل مع المؤثرات المختلفة الداخلية والخارجية. تجري التحولات بشكل مستمر، وإن كان بطيئًا في معظم الأوقات، لكن التحول يتسارع في ظروف الأزمة، ويتحول إلى تحول انقلابي حين تكون الأزمة شديدة أو عاصفة. وحين نتحدث عن تحول في البنية، فإننا نشير بشكل أكثر تركيزًا إلى منظومات القيم والأعراف ومعايير العلاقات الاجتماعية التي تشكّل ما نسميه بالرابطة الاجتماعية. هذه الرابطة كينونة جمعية واحدة، تتفاعل - بشكل لين أو خشن - مع هموم أعضاء الجماعة وتطلعاتهم ومعارفهم إضافة إلى قدراتهم المادية.

التشديد على ثبات البنية على مدى تاريخي طويل، يجعل البليهي في خط واحد مع العلامة عبد الرحمن بن خلدون، الذي تحدث عن «طبائع» الشعوب والأقوام. ولا أظن هذا صحيحًا. نحن نتخيل تاريخنا ولا نعرفه بدقة. ومحاولتنا لفهمه تنطوي على مقاربة رجعية. وهي لا يمكن أن تكون منطقية لأنك تريد أن ترى الماضي بعين الحاضر.

مفهوم ابن خلدون بعيد عن مفهوم البنية الاجتماعية المعروف في علم الاجتماع المعاصر. وهو يقع في منتصف المسافة بينها وبين نظرية الحتمية البيولوجية. وأرى أن فكرة البنية التي يتحدث عنها البليهي، أقرب إلى مفهوم «الطبائع» الذي ذكره ابن خلدون. بل إن الأستاذ البليهي يذكر أيضًا في سياق أحاديثه، عبارات تطابق عبارات ابن خلدون، مثل عنوان الفصل ٢٦ من «المقدمة» الذي اختار له « باب أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها

الخـراب»[1] والعنـوان يكفـي عـن مزيـد البيـان.

والحقيقـة أن ابـن خلـدون لم يقـل باطـلاً، فالأدلـة عـلى قولـه أكـثر مـن أن تحـصى. وأبرزهـا أن بعـض آثـار الأمـم السـابقة للدولـة العربيـة لا زالـت قائمـة، بينـما لم تـترك هـذه الدولـة عـلى اختـلاف عصورهـا أي أثـر يشـار إليـه بالبنـان. أو أنهـا لم تـترك مـا يشـير إلى عنايـة بالبنـاء والعمـران عـلى نطـاق واسـع.

وقـال ابـن خلـدون في تبريـر هـذه الحالـة، إن العـرب أميـل للتوحـش وإنـكار النظـام، وهـم لا يجيـدون التعامـل مـع مكونـات البيئـة، فالحجـارة التـي اسـتعملتها الأمـم في البنـاء، اسـتعملها العـرب في نصـب القـدور للطبـخ، كـما أن الأخشـاب التـي اقيمـت بهـا الاسـقف اقامـوا بهـا الخيـام، فضـلاً عـن قيـام حياتهـم عـلى الغـزو والغنيمـة والنهـب.

انظـر كذلـك الفصـل ٢٨ مـن المقدمـة، وعنوانـه «بـاب في أن العـرب ابعـد الأمـم عـن سياسـة الملـك»[2] وكـذا الفصـل ٢١ «بـاب في أن العـرب أبعـد النـاس عـن الصنائـع» والفصـل ٣٥ «في أن حملـة العلـم في الإسـلام أكثرهـم مـن العجـم».

وقـد اغـرق ابـن خلـدون في الـكلام عـن اختـلاف الأعـراق وامتيـاز بعضهـا بصفـات وأخلاقيـات، مصدرهـا تكوينـي، رغـم أنـه حـاول أيضًـا ايجـاد تفسـير في إطـار نمـط المعيشـة والانتـاج، أي مـا نسـميه اليـوم بالاقتصـاد السـياسي. وللتأكيـد ذكـر التأثير الشـديد للبيئـة الاجتماعية والثقافـة العامـة، عـلى نمـط العيـش والأخلاقيـات «اعلَـمْ أنّ اختـلاف الأجيـال في أحوالهـم إنمّـا هـو باختـلاف نِحْلَتهـم مـن المَعـاش»[3] و

(١) عبـد الرحمـن بـن خلـدون: مقدمـة ابـن خلـدون، عبـد اللـه الدرويـش، دار يعـرب (دمشـق ٢٠٠٤) ص ٢٨٧.

(٢) ابن خلدون: المصدر نفسه ص ٢٩٠.

(٣) ابن خلدون: المصدر نفسه، ص ٢٤٣.

«الإنسان أبنُ عَوائده ومَأْلُوفه، لا أبن طبيعته ومِزَاجه. فالذي أَلِفَهُ من الأحوال حتّى صار خُلُقًا ومَلَكةً وعادةً، تَنَزّل منزلةَ الطبيعة والجِبِلّة»[1]. لكن لا يبدو أن هذه التفسيرات قللت من اعتقاده في الفوارق البيولوجية. ولعله اعتبر العاملين، أي الاجتماعي والبيولوجي، متضامنين في تشكيل الشخصية والسمات الخاصة لكل عرق.

اشرت إلى أنه لا يظهر في أي من كتابات البليهي، ما يشير إلى تبنيه لمنظور الحتمية البيولوجية، القائلة بالفوارق بين الأعراق في القابليات الفطرية. لكن إلحاحه على الفشل التاريخي للعرب[2]، مضافًا إليه تأكيده الشديد على جبر البنية الاجتماعية، والعسر الشديد للتحرر منها (لا سيما استبعاده الحازم لإمكانية اكتشاف الحقيقة ووضع مسافة بين الذات والبيئة) يوقعه في مشكل أساسي، هو الشك في عقلانية الإنسان وخيريته. في الحقيقة هناك اشارات إلى تمتع الإنسان بهاتين السمتين في انحاء من كلامه عن القابليات الفارغة. لكن تشككه القوي في قابلية الإنسان للتحرر، هو الذي يعطي ايحاءً قويًا إلى تبنيه للمنظور العكسي، وهذا يتعارض مع مبدأ متفق عليه بين الفلاسفة المعاصرين، بل هو أحد الثوابت في الفلسفة الحديثة، وهو اعتبار عقلانية الإنسان وأخلاقيته، و «تبعا لهذا» قدرته على التصحيح. مما يعزز هذا الظن إشاراته أحيانًا إلى ما يشبه مفهوم الجبر، يقول مثلاً في شرحه لمفهوم التلقائية:

«الإنسان كائن تلقائي، يحب رغمًا عنه، ويكره رغمًا

(١) ابن خلدون: المصدر ص ٢٥١.

(٢) انظر مثلا حديث البليهي إلى قناة العربية: فهد الشقيران: البليهي: العرب أعاقوا الحضارة واليونسكو تحمي التخلف، موقع قناة العربية ١٥ نوفمبر ٢٠١٦ https://bit.ly/2XrFE88

عنه، ويقلق رغمًا عنه، ويخاف رغمًا عنه، ويفر من المخيف بشكل تلقائي، ويصاب بالأرق وتنتابه مختلف الانفعالات دون إرادته. إنه يصاب بالكرب رغمًا عنه ويجب نفسه مدفوعًا تلقائيًا للتعبير عما يتفاعل ويغلي في داخله..»[1]

مخرج محتمل

وفقًا للبليهي فإن العقل البشري يخضع لتأثير نظم تفكير ثلاثة:

أ. نظام التفكير التلقائي المتوارث الذي يجده الإنسان في البيئة المحيطة منذ اطلالته الأولى على العالم. هذا النظام يتشكل ضمن منظومة من القيم والأعراف والأوهام التي تحولت مع الزمن إلى ما يشبه برنامجًا ثابتًا ونهائيًا في حياة الجماعة وعقلها بحيث لا ترى شيئًا سواه، لا ترى حقًّا ولا باطلًا ولا شيئًا محايدًا إلا عبر الموازين والمناظير التي توفرها هذه المنظومة أو النسق.[2]

ب. نظام التفكير العملي، أي مجموعة المعلومات والمعايير التي يتعامل بها ومعها الإنسان في حياته اليومية، التي قد يتشارك فيها أو في بعض جوانبها مع اشخاص لا ينتمون إلى اطاره الثقافي الخاص. وهذا يطابق وفق البليهي مفهوم «الحكمة العملية» عند ارسطو. التفكير العملي محكوم من حيث المبدأ بنظام التفكير التلقائي السابق الذكر ومعاييره فيما يخص رؤية العالم. لكنه يختلف عنه في الأداء العملي أو المهني حيث يتبع منطق المهنة وقواعدها التي قد تكون أكثر تطورًا أو

(١) البليهي : الإنسان كائن تلقائي، ص ٤٠.

(٢) إبراهيم البليهي: الإنسان كائن تلقائي، ص ٥٤٩.

مختلفة تمامًا عن النظام الأول[1].

ج.نظام التفكير الفردي الريادي الاستثنائي: وهو نظام فلسفي ناقد ومضاد للنظام الأول. ويعتقد البليهي إنه ليس ممكنًا لهذا النظام أن يكون أسلوب حياة للجماعة. إنه ميزة يتمكن منها بعض الأفراد فحسب. إن الاختراقات العملية الكبرى نادرة جدًّا، لأن الأشخاص الذين يتمتعون بالمواصفات التي تتطلبها ـ وأبرزها امتلاكهم لنظام التفكير هذا ـ قلة نادرة[2].

حين تستغرق في قراءة الأستاذ البليهي، فقد تشعر بأنه لا يقترح شيئًا سوى الوقوف أمام طريق مسدود وربما البكاء على اطلال الذات المهشمة. لكن حديثه عن التعليم والإنسان المفتوح للتغيير، قد يكون مخرجًا محتملاً من اليأس. مع أنه يضع شروطًا لنجاح هذا الدور، قد لا تتوفر في الأعم الأغلب من نظم التعليم في العالم. على أي حال لا ينبغي اخذ الكلام في حدوده القصوى. ثمة دائما نقاطة في الوسط يمكن اعتبارها مؤشرًا على هذا الاتجاه أو ذاك.

مهمة التعليم حسب راي البليهي ليست تكديس المعلومات في أذهان الطلبة ولا سرد الأحداث واستظهار الوقائع، بل تطوير العاقل الناقد المتسائل، العقل الذي يشعر دائمًا بالحاجة إلى المزيد، وليس العقل الذي يشبه وعاء امتلأ فاكتفى بما فيه.[3] بعبارة أخرى فإن التعليم ـ في صورته المثلى ـ سيبني الذهنية المتسائلة الناقدة، التي تنتمي للنوع الثالث من نظم التفكير، بحسب الشرح الوارد في السطور السابقة.

(١) إبراهيم البليهي: الإنسان كائن تلقائي، ص ٥٤٩.

(٢) إبراهيم البليهي: الإنسان كائن تلقائي، ص ٥٥١.

(٣) المصدر نفسه ص ١٧٣

الإنسان مشروع مفتوح النهايات

رغم عسر التحرر من البرمجة الاجتماعية، فإن الإنسان قادر على ذلك. لا يمكن إنكار هذا. هذا ما يميز العقل الإنساني عن الإدراكات الغريزية للحيوان

«القطاة تهتدى إلى وكرها في الفلاة دون تردد أو بحث (...) لا تتوه ولا تتردد ولا تبحث، إنما تنجذب إلى وكرها الخفي كما ينجذب الحجر إلى الأرض».

«دودة القز تنسج خيوط الحرير بنفس الطريقة وعلى نفس المستوى من الدقة منذ أن وجدت وإلى أن يرث الله الارض ومن عليها».

«والقط يقفز من جدار إلى آخر بمهارة يغبطه عليها لاعبو السيرك وبرشاقة لا يستطيعها الإنسان إلا بتدريبات مضنية ومتواصلة».

«إنه التكوين الناجز والبرمجة المكتملة .. لأن الحيوانات موجهة غريزيًا وليست متروكة لجهدها ولا موكولة لاختيارها .. ولذلك لا يعتريها النقص ولا تتعر للخطا في حدود المهام التي خلقت من أجلها، أما الإنسان فهو بمثابة مشروع مقترح، فهو مفتوح لكل احتمالات التالق والانطفاء .. ولكل مستويات الفجاجة والنضج..»[1]

انعتاق الفرد من رق اهوائه وتخففه من هيمنة البرمجة التي صاغه بها مجتمعه، يجعله قادرًا على توجيه حياته بالمستوى اللائق بالإنسان.

«ان مرونة العقل البشري مزية عظيمة، لكن عفونة التقاليد أحالت هذه المزية إلى رزية . فالعقل المفتوح للفهم

(١) المصدر نفسه ٢٠٦.

عند الولادة.. استحال بالتنشئة إلى عقل مغلق بالتعصب»[1]

انتاج العلم والثورات العلمية

من المحاور التي أظنها رئيسية في فكر الأستاذ البليهي، دور الفرد الاستثنائي في النهضة. وخلاصة رؤيته في هذا الخصوص هي أن البحث العلمي العادي، بكل ما فيه من علماء ومؤسسات بحث وجامعات، لا ينتج علمًا عظيمًا. العلم العظيم يتوصل إليه أفراد استثنائيون حالمون، في لحظة توهج للحلم أو الخيال الذي يتجاوز كل ما هو واقعي أو متعارف أو مألوف. وفقًا للبليهي فإنه ثمة «خلط شديد التضليل وفادح الضرر بين الاختراقات العبقرية التي تتحقق بواسطة الاهتمام التلقائي القوي المستغرق، وبين البحث العلمي الرتيب بواسطة الالتزام باحد المناهج العلمية وخطواته التقنية»[2].

حين تقرأ هذه الفكرة بمفردها، سوف تتذكر ـ على الأرجح ـ نظرية توماس كون في تقدم العلم، التي شرحها في كتابه المرجعي «بنية الثورات العلمية»[3]. ميز كون بين مرحلتين في تقدم العلم: مرحلة العلم العادي حيث يقتصر دور الباحثين على ما يسميه «حل الكلمات المتقاطعة» أي العلم تحت سقف نظرية أساسية متوفرة فعليًا[4]. هذه النظرية ليست مجرد رأي بل منظومة كاملة من الفرضيات الأساسية وتعريف موضوعات العلم والمنطلقات ومعايير التقييم وطرق البحث والقياس والمعايرة وصولًا إلى تقييم النتائج. إن أي علم ينتج في هذا الإطار لن يختلف ـ وفقًا

(١) المصدر نفسه ص ٢١١.

(٢) إبراهيم البليهي: الإنسان كائن تلقائي، ص ٦٩.

(٣) توماس كون: بنية الثورات العلمية، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة (الكويت ١٩٩٢).

(٤) توماس كون : المصدر السابق ص ٦٩.

لتوماس كون ـ عن السياق السائد فعليًا. ولذا لا نتوقع اختراقات كبرى في مرحلة العلم العادي أو في اطار البارادايم الذي يتمثل في النظرية والمنظومة السابقة الذكر.

تحدث الاختراقات حين يكتشف عالم ما عجز أدوات المنظومة إياها عن حل المعضلات أو الاشكالات التي تظهر في نفس البيئة العلمية، أي ضمن حدود البارادايم، ويعجز أنصار البارادايم عن تبرير أسباب هذا العجز أو إنكار جديته[1]. هذا الاكتشاف سوف يزعزع الثقة الراسخة في البارادايم السائد ويفتح الباب امام بديل عنه. واذا نجح أي بديل في استقطاب الاهتمام، فسوف ينفر الناس اليه ويتخلون عن سلفه في حركة تشبه قفزة بين عالمين. وهذا ما يسميه توماس كون بانقلاب البارادايم أو الثورة العلمية، ويعزو اليها اهم لحظات التحول الكبرى في تاريخ العلم[2].

ملاحظة اخيرة

لقد أجاب الأستاذ البليهي عن سؤال: ما هو الطريق للخلاص من الوضع السائد محل النقد، أجاب بأن الحل يكمن في متابعة الأمم التي تقدمت والاحتذاء بتجربتها، مثلما فعل اليابانيون والكوريون في النصف الثاني من القرن العشرين.

هذا الاقتراح يواجه معضلتين مهمتين: أولاهما تشديده على عسر التحرر من الزامات البنية الاجتماعية، وإلحاحه الموازي على ما يمكن أن اسميه بالحالة السكونية للعقل الذي تشكل في هذا الإطار. فكيف يمكن لإنسان تسكنه حالة جهل مركب ـ وفق تصوير البليهي ـ أن ينظر للآخرين نظرة التلميذ، مثلما فعل الكوريون واليابانيون؟.

(١) توماس كون : المصدر السابق ص ١٢٠

(٢) توماس كون : المصدر السابق ص ١٥١

في اعتقادي أن الفكرة القائلة بأن الإنسان العربي يعاني من جهل مركب، ليست دقيقة، وأن القسر الشديد للبيئة على النحو الذي صوره الأستاذ البليهي، ليست صحيحة هي الأخرى. في كل الاوقات يمكن للإنسان أن يتحرر - ولو لوقت يسير - من انحيازاته ويستذكر المباديء الأولية للعدالة كمعيار حاكم على علاقته مع الغير، وفق التصوير الذي قدمه الفيلسوف المعاصر جون راولز، عن الموقف الأصلي وحجاب الغفلة، وعلاقتهما بقابلية الإنسان لاكتشاف الخير والعدل[1].

أود الاشارة أيضًا إلى نهوض المشاعر الفردانية في العقدين الأخيرين، وتسلحها بالقدرات الاتصالية الواسعة التي أتاحها تطور تقنية الشبكات والاتصالات، حتى بات ممكنًا لشاب ذكي في مكان ما من العالم أن يطلق فكرة ذكية يتلقاها آلاف الناس، فتصنع تيارًا يؤثر بعمق في حياة العالم. إن الجيل الجديد من سكان العالم - ومنه العرب والمسلمون دون استثناء - يشكل هويته وشخصيته وثقافته من خلال مسارات تواصلية مكثفة تتجاوز النطاقات التقليدية، أي العائلة والقوم والبيئة المحيطة. لم يعد أبناؤنا يشبهوننا إلا قليلًا، وسيكون أبناؤهم أقل شبهًا بنا وبهم، وأكثر تشربًا بالرؤى والتصورات التي تنتشر في شبكات الانترنت وتجوب العالم. وأود إحالة القاريء إلى الرؤية العميقة، التي قدمها البروفسور مانويل كاستلز، حول اجتماعيات الشبكة وتوليف الهوية وتحولات القوة في عصر الانترنت[2]. يساعدنا تحليل البروفسور كاستلز على فهم أبعاد التحوّل الذي تمر به

(١) انظر بهذا الصدد: جون راولز: نظرية في العدالة، ترجمة ليلى الطويل، الهيئة العامة السورية للكتاب (دمشق ٢٠١١)، الفصل الثالث ص ١٦١

(٢) For a brief account, see Manuel Castells, 'The Impact of the Internet on Society: A Global Perspective', (OpenMind-BBVA 2014), https://www.bbvaopenmind.com/en/articles/the-impact-of-the-internet-on-society-a-global-perspective/

المجتمعات والثقافة وموازين القوى وخطوط التأثير في العالم ككل. ما يتعرض له الجيل الجديد في كل أرجاء العالم، من تداعيات العولمة وتبدل مكونات الهوية والثقافة، يتعرض له الجيل العربي أيضًا، وليس لدينا دليل يبرر استثناءه من هذا التحول العميق الذي يؤثر في حياة العالم شرقه وغربه.

في ختام هذه الكتابة، أودّ العودة إلى ما بدأت به من تأكيد على العمق الاستثنائي للرؤية التي يطرحها الأستاذ البليهي، كما أثني على شجاعته الفائقة في تحمل الهجمات المتوالية والبغضاء المستمرة من جانب القوى التي نصبت نفسها حارسة للموروث المتخلف، فضلا عن الأقلام التقدمية التي لم تستطع احتمال تصنيفه إياها كجزء من مركب التخلف الثقافي.

في بلدنا خير كثير، وليس أدل عليه من وجود اشخاص مثل إبراهيم البليهي، الذي كان قادرًا على الاستمرار والتطور، رغم كل المعوقات الاجتماعية وغير الاجتماعية.

مُنتدى الثلاثاء الثقافي

Thulatha Cultural Forum